

الفصل الثاني الفاضى الجرجانى فى عصره

١ - حياته

الفاضى الجرجانى هو على بن عبد العزيز ، ويذكر بعض مؤرخيه له ثلاثة من الأجداد ، هم : الحسن ، على ، وإسماعيل^(١) . وكان مولده بجرجان^(٢) ، التى وصفها ياقوت الرومى بقوله : « وهى مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان . . . وهى أكبر مدينة بنزاجيها ، وهى أقل ندى ومطراً من طبرستان ، وأهلها أحسن وقاراً ، وأكثر مروءة ويساراً . . . وأهلها يأخذون أنفسهم بالتأتى والأخلاق المحمودة . . . وقد خرج منها خلق من الأدباء والعلماء والفقهاء والمحدثين . ولها تاريخ ألفه حمزة بن يزيد السهمى . . . »^(٣) . وهكذا كانت البيئة الأولى التى ولد فيها « على » ، بيئة تؤهل من عنده استعداد لأن يبرز فى العلم والأدب . وأن يتولى من المناصب ما يحتاج إلى الرزانة والوقار والخلق الحميد كمنصب القضاء .

أما تاريخ ولادته فيختلف فيه مؤرخوه ، وإذا كان الرضع الطبيعى المذكور تاريخ الوفاة هو آخر ترجمة الحياة ، فإننا هنا مضطرون إلى أن نذكر تاريخ الوفاة ؛ لأنه هو الذى يحدد لنا تاريخ الميلاد .

فابن خلكان فى وفيات الأعيان يروى عن مؤلف تاريخ النيسابوريين أنه توفى فى سلخ صفر سنة ست وستين وثلاثمائة ، وعمره ست وسبعون سنة ؛ وعلى

(١) طبقات الشافعية ٢ : ٣٠٨ .

(٢) معجم الأدباء ١٤ : ٢١ .

(٣) معجم البلدان ٣ : ٧٥ .

ذلك يكون تاريخ ولادته سنة تسعين ومائتين . ويرجح ابن خلكان هذه الرواية ، ويقول : لأنها أثبت وأصح^(١) .

كما نقل ابن خلكان أيضاً رواية من ذهب إلى أنه توفى سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة^(٢) ، وإلى أن محمداً أخاه ورد به نيسابور في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة^(٣) ، وهو صغير غير بالغ^(٤) ؛ فإذا قدرنا أن سنه يومئذ كانت خمسة عشر عاماً يكون قد ولد في سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة ، ويكون قد ولد أدرك السبعين يوم وفاته .

أما أنا فأخالف ابن خلكان ، وأرجح هذه الرواية للأسباب الآتية :
أولهما : أنى أرجح أنه مات بعد الصباح بن عباد ؛ يقول الثعالبي : « وتصرّفت به أحوال في حياة الصباح ، وبعد وفاته : من الولاية والعطلة »^(٥) ؛ وقد توفى الصباح سنة خمس وثمانين وثلاثمائة^(٦) .

وثانيهما : أنه اتصل بشمس المعالي قابرس بن وشمكير^(٧) الذي تولى الحكم في جرجان بعد سنة ست وستين وثلاثمائة^(٨) .

وثالثها ، وهو يكاد يكون قاطعاً فيما ذهبنا إليه : أن الصباح بن عباد قد صار وزيراً ابتداء من سنة ٣٦٦ هـ^(٩) أما قبل ذلك فكان كاتباً للأمير البويهى

(١) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٥ . وأخذ بهذه الرواية صاحب شذرات الذهب .
(٢) هذه السنة أرّخ ياقوت في معجم الأدباء (١٤ : ١٥) عام وفاة القاضي ، وحدد السبكي شهر وفاته في هذا العام بذي الحجة (طبقات الشافعية ٢ : ٣٠٨) ، وحدد بروكلمان يوم الوفاة بالرابع والعشرين من هذا الشهر (١٤ نوفمبر سنة ١٠٠١ م) - تاريخ الأدب العربي ٢ : ٢٧١ . وجعله ياقوت يوم الثلاثاء .

(٣) كتبت في بروكلمان خطأ : سنة ٣٧٧ هـ ، وأغلب الظن أنها خطأ مطبعية .
(٤) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٥ : وروى ذلك أيضاً السبكي في طبقات الشافعية ٢ : ٣٠٨ .
(٥) بيتيمة الدهر ٤ : ٣ .
(٦) الصباح ابن عباد ص ٤٤ .
(٧) راجع معجم الأدباء ١٤ : ٣٠ ، وبيتيمة الدهر ٤ : ١٥ .
(٨) تاريخ الدولة العباسية للخضري ص ٤٤١ .
(٩) الصباح بن عباد ص ٢١ .

مؤيد الدولة ، وشعر القاضي الجرجاني فيه يصنفه بالوزير ، إذ يقول من قصيدة يهنئه فيها بالبرء من المرض :

إذا ألمت نفس الوزير تألمت لها أنفوس تحيا بها وقلوب
ووالله لا لاحظت وجهاً أحبه حياتي ، وفي وجه الوزير شحوب

محمد يدل على أنه كان متصلاً به بعد هذه السنة التي قيل إنه مات فيها .
وتلك الرواية الثانية هي التي أخذ بها بروكلمان وجعل غيرها خطأ^(١) .
وأغلب الظن أن علي بن عبد العزيز تلقى ثقافته الأولى ببلده جرجان ؛
فإن أول رحلة له في طلب العلم كانت - علي ما أرجح - إلى نيسابور ،
حيث صحبه أخوه إليهما ، وكان صغيراً لم يبلغ الحلم ، كما ذكرنا .

ولبيت أدري السبب الذي دفع القاضي الجرجاني إلى الرحيل عن بلده
جرجان ، ولكني أرجح أن الفتى علياً توفي أبوه ، وهو في سن مبكرة ؛
فغنى بأمره أخوه محمد . فلما أراد هذا الأخ أن يرحل في طلب العلم صحب معه
في الرحلة أخاه الصغير ، وقصد نيسابور التي يصفها ياقوت بأنها « معدن
الفضلاء ، ومنبع العلماء »^(٢) ، حيث سمعا من سائر شيوخ المدينة^(٣) .

ويظهر أنه أطل المقام في نيسابور ، أو أنه كان يتردد عليها في الحين بعد
الحين ، ويطلق المقام فيها ، مما جعل مؤرخ النيسابوريين يتحدثون - في
كتابه ، بل يزعم أنه مات في نيسابور^(٤) .

وتمتحت نفسه في هذه الرحلة لطلب العلم ، ورأى فيها مجالاً للاغتراف
من الثقافة بأوفى نصيب ، فضى يجوب البلاد الإسلامية ، ليلقى العلماء ،
ويأخذ عنهم ، يقول الثعالبي : « وقد كان في صباه خلف الخصر في قطع
عرض الأرض ، وتدويخ بلاد العراق والشام وغيرهما ، واقتبس من أنواع العلوم

(١) تاريخ الأدب العربي ٢ : ٢٧١ .

(٢) معجم البلدان ٨ : ٣٥٦ .

(٣) طبقات الشافعية ٢ : ٣٠٨ ، وفيات الأعيان ١ : ٣٢٥ .

(٤) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٥ .

والآداب ما صار به في العلماء علماء ، وفي الكُتَمَّالِ عالماً^(١) ، ويقول ياقوت :
إنه « لقي مشايخ وقته ، وعلماء عصره^(٢) » .

وإذا نحن عرفنا أن القاضي الجرجاني ألف في التفسير والتاريخ والنقد والنقد وله شعر ورسائل ، استطعنا أن نستنبط ما أفاده في هذه الرحلات من ثقافة واسعة في الشريعة والأدب ، وكتابه الوساطة يدل على اطلاع واسع على دواوين الشعراء السابقين ، وعلم غزير باللغة ، ومعرفة بالغريب ، ومقدرة على فهم معاني الشعر ، وتمكن من النحو والعروض ، واتصال وثيق بما كتبه النقاد من قبل .
والرَّاجِحُ عندي أن ثقافة القاضي الجرجاني كانت عربية خالصة ، لم يتصل فيها بالنقد اليوناني . وربما يكون قد ألمَّ ببعض نواحي الفلسفة اليونانية ، مما مكَّنه من معالجة بعض الشعر الفلسفي للمتنبي .

وإن رحلاته الكثيرة هي التي جعلته يقول :

مالي ومالك يا فراق أبداً رحيل وانطلاق^(٣)

ولعلَّ بغداد كانت أكبر مدينة تركت في نفسه أثراً بالغاً . فقد تغنى بها طويلاً بعد أن فارقتها . وحنَّ إلى معاهدها ، وذكرياته فيها ، وأنشأ في ذلك عدة قصائد لما أثرها العميق في النفس .

وكان يتمنى أن لو عاد إليها .

ولعله انكفأ راجعاً إلى بلده ، بعد أن وعى صدره من العلم والأدب ما وعى ؛ وربما كان يأمل أن يجد تقديراً من حكام عصره ، فيولِّوه عملاً يدر عليه رزقاً واسعاً يناسب ثقافته العالية ، ولكن هذا الأمل لم يتحقق ، ورأى دون الوصول إليه ما لا تحتمله نفسه . ولا يطيقه خلقه : من خضوع ونفاق . فانزوى في بيته ، منفقاً من صبره ، مؤمناً بأنه لا يكفيه همُّ الرزق إلا إنسان حرٌّ لا يكلفه إذلال نفسه ؛ وربما طلب إليه صحبه أن يرحل ليعيش في كنف

(١) يتيمة الدهر ٤ : ٣ .

(٢) معجم الأدباء ١٤ : ١٦ .

(٣) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٥ .

أمير أو وزير ، فيقول :

وقالوا : اضطرب في الأرض ؛ فالرّزق واسع

فقلتُ : ولكن مطلبُ الرّزق ضيقُ

إذا لم يكن في الأرض ، حُرٌّ يعينني

ولم يكُ لي كسبٌ فن أبن أرزق^(١)

وقد حقق الله للقاضي أمله يوم هيباً له الاتصال بالصاحب بن عباد ،
الذي صار وزير بني بويه ، والذي « كان نادرة الدهر ، وأعجوبة العصر ،
في فضائله ، ومكارمه ، وكرمه » « على المحلّ في العلم والأدب »^(٢) .

واشتدّ اختصاص القاضي بالصاحب ، وحلّ عنده محلّ رفيع المكانة ،
وأجلّه إجلالاً يبين عنه ما بقي من آثار الصاحب .

قال القاضي : انصرفت يوماً من دار الصاحب ، وذلك قبيل العيد . فجاء

رسوله بعطر الفطر ، ومعه رقعة بخطه فيها هذا البيتان :

يأبها القاضي الذي نفسى له مع قرب عهد لقائه مشتاقه

أهديتُ عطراً مثل طيب ثنائه فكأنما أهدى له أخلاقه^(٣)

وولاه الصّاحب قضاء جرجان^(٤) . وهنا كانت الفرصة سانحة لعلّي

ابن عبد العزيز أن يظهر في مدينته ، بتبوّئه فيها ذلك المنصب الكبير .

ولست أدري ماذا فعل القاضي في جرجان من الوسائل التي ينبغي عليها

الحجّد ، فهل كان يجلس في قومه مجلس الأستاذ ، يذيع بينهم علمه الغزير ،

أو أنه التزم جانب العدالة في قضائه ، حتّى وجد المظلوم في كنفه العدل

والأمان ؟ أو أنه استخدم جاهه وصلته بالصاحب الوزير ، فأفاد أهل بلده

بذلك الجاه العريض ؟

(١) معجم الأدباء ١٤ : ١٨ .

(٢) مقتبسات من وفيات الأعيان ١ : ٧٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٠ .

(٤) تبيين الدهر ٤ : ٣ .

لست أدري ماذا فعل القاضي حتى صح له أن يقول :

وشيدتُ مجدى بين قومي ، فلم أقل : ألا ليت قومي يعلمون صنيعي (١)
 وكان القاضي يقول : إنَّ الصَّاحِبَ يَقْسِمُ لِي مِنْ إِقْبَالِهِ وَإِكْرَامِهِ بِجِرْجَانٍ
 أَكْثَرَ مِمَّا يَتَلَقَّانِي بِهِ فِي سَائِرِ الْبِلَادِ ؛ وَقَدْ اسْتَعْفَيْتَهُ يَوْمًا مِنْ فِرْطٍ تَحْفِيهِ بِي ،
 وَتَوَاضَعَهُ لِي ، فَأَنْشَدَنِي :

أَكْرِمِ أَخَاكَ بِأَرْضِ مَوْلِدِهِ وَأَمِيدَهُ مِنْ فَعْلِكَ الْحَسَنِ
 فَالْعَزَّ مَطْلُوبٌ وَمُلْتَمَسٌ وَأَعَزَّهُ مَا نِيلَ فِي الْوَطَنِ (٢)
 ولعلَّ الصَّاحِبَ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ الْقَاضِي بِجِوَارِهِ دَائِمًا فَوَلَاهُ قَضَاءَ الرَّيِّ (٣) ،

حيث يقيم الصاحب ؛ وفي الرسالة التي كتبها الوزير إلى حسام الدولة ،
 أبي العباس تاش الحاجب ، ما يدل على إعجاب الصاحب بالقاضي إعجاباً
 حمله على ألا يفارقه ، فقد كتب الصاحب بخطه كتاباً إلى هذا الأمير ،
 عندما أراد القاضي السفر إلى جرجان لأمر من الأمور ، وجاء في هذا الكتاب :
 « قد تقدّم من وصفي للقاضي أبي الحسن عليّ بن عبد العزيز فيما سبق . . .
 من كتبي ما أعلم أني لم أؤد فيه بعض الحقّ ، وإن كنت دللته على جملة تنطق
 بلسان الفضل ، وتكشف عن أنه من أفراد الدهر ، في كل قسم
 من أقسام الأدب والعلم ؛ فأما موقعه مني فالموقع الذي تحظيه هذه المحاسن ،
 وتوجبه هذه المناقب . وعادته معي ألا يفارقتي مقيماً وظاعناً ، ومسافراً وقاطناً ؛
 وقد احتاج الآن ، إلى مطالعة جرجان ، بعد أن شرطت عليه تصيير المقام
 كالإمام . . . فإن رأى الأمير أن يجعل من حظوظي الجسيمة عنده تعهد
 القاضي أبي الحسن بما يعجل رده ؛ فإني ما غاب كالمضلل الناشد ، وإذا عاد
 كالغانم الواجد ، فعل إن شاء الله (٤) » .

(١) معجم الأدباء ١٤ : ٢١ .

(٢) معجم الأدباء ١٤ : ٢١ .

(٣) المرجع السابق ص ١٤ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٣ . نقلًا عن اليتيمة .

ومن تلك الرسالة يتبين تقدير الصاحب للقاضي ، حتى جعله من أفراد الدهر . ويتبين أيضاً مقدار حرصه على أن يبقى القاضي إلى جانبه ، حتى صار كأنما هو من أفراد أسرة الصاحب^(١) .

وقابل القاضي الجرجاني هذا الحب والتقدير بود وإعجاب بالغين . ولست أدري السبب الذي من أجله كان القاضي الجرجاني يترك منصبه في حياة الصاحب وبعد وفاته^(٢) ، وهل كان من أسرار ذلك حنينه إلى العلم ورغبته الملحة في الدراسة والاطلاع ، حتى قال :
ما تطعمت لذّة العيش حتى صرتُ للبيت والكتاب جليسا
ليس شيءٌ أعزّ عندي من العلم ؛ فليم أبتغي سواه أنيسا
إنما الذلّ في مخالطة النا س ؛ فدعهم ، وعش عزيزاً رئيساً^(٣)
وترقى محل القاضي الجرجاني إلى أن صار قاضي القضاة بالرّي ، ولم يعزله إلا موته^(٤) .

وإلى جانب هذا المنصب الكبير ذاع اسم القاضي في أرجاء العالم الإسلامي بما نثر ونظم وألّف .

وقد عرف القاضي الجرجاني بعض كبار الرجال غير الصاحب ومدحهم . ومما لا شك فيه أن القاضي الجرجاني كان له تلاميذه الذين قرءوا عليه ، وأخذوا عنه ، ولكن مؤرخيه لم يذكروا أحداً من هؤلاء التلاميذ إلا عبد القاهر الجرجاني ؛ فقد روى ياقوت أنه قرأ عليه ، واغترف من بحره ، وكان إذا ذكره في كتبه تبخّخ به ، وشمخ بأنفه بالانتهاء إليه^(٥) .

وإني أشكّ فيما رواه ياقوت من أن عبد القاهر قرأ على القاضي الجرجاني

(١) المرجع السابق ص ٢٢ نقلا عن اليتيمة أيضاً .

(٢) يتيمة الدهر ٤ : ٣ .

(٣) معجم الأدباء ١٤ : ١٩ .

(٤) يتيمة الدهر ٤ : ٣ .

(٥) معجم الأدباء ١٤ : ١٦ .

شيئاً ، لأنّ القاضى توفى سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة ؛ فحتى يكون عبد القاهر قد أخذ عنه ؟ لقد توفى عبد القاهر سنة إحدى وسبعين وأربعمائة ، فإذا كان قد أخذ عن القاضى الجرجاني ، فلا بدّ أن يكون عبد القاهر قد ولد قبل وفاته بنحو خمسة عشر عاماً على الأقل . حتى يستطيع أن يأخذ عن عالم واسع العلم كالقاضى ؛ ومعنى ذلك أنّ عبد القاهر ولد حول سنة سبع وسبعين وثلاثمائة ؛ فيكون عند وفاته قد أربى على تسعين عاماً ، ولم يشر أحد من مؤرخيه إلى أنه طعن في السنّ إلى مثل هذا الحدّ ؛ مما يرجح أنّ أخذ عبد القاهر عن القاضى كان أخذاً عن كتبه ، لا شخصه (١) .

ويصمت التاريخ صمتاً مطبقاً حول حياته الخاصة ، فهل تزوج القاضى الجرجاني وكون أسرة وأنجب أولاداً ؟ أو أن رحلاته في طلب العلم قد استغرقت شبابه ، حتى إذا رجع إلى بلده وجد ضيق العيش في انتظاره ، حتى إذا انفسحت أمامه الآمال عندما اتصل بالصاحب بن عباد - كان وقت الزواج قد تولى ، فانصرف إلى كتبه يقرؤها ، وإلى قرطاسه وقلمه يسجل ما انتهى إليه من أفكاره وتجاربه ؛ لا يجيب التاريخ عن ذلك السؤال .

وتوفى القاضى الجرجاني ، وهو قاضى القضاة بالرّى (٢) ، وزعم مؤرخ النيسابوريين أنه توفى بنيسابور (٣) ؛ ويجمع مؤرخوه على أن تابوته نقل إلى مسقط رأسه جرجان (٤) ، حيث شيعته مدينته تشييعاً حافلاً . وصلى عليه القاضى أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد . وحضر جنازته الوزير الخطير أبو على القاسم بن على بن القاسم وزير مجد الدولة راجلاً (٥) . حيث أودعه مقرّه الأخير .

(١) عبد القادر الجرجاني ص ٦ .

(٢) معجم الأدباء ١٤ : ١٥ ، وطبقات الشافعية ٢ : ٣٠٨ .

(٣) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٥ .

(٤) معجم الأدباء ١٤ : ١٥ ، وطبقات الشافعية ٢ : ٣٠٨ ، وشذرات الذهب ٣ : ٥٦ .

(٥) معجم الأدباء ١٤ : ١٥ .

٢ - صورته الحسانية والنفسية

ليس فيما بين يدي من مصادر تاريخه ما يلقي ضوءاً ما على صورته الحسانية ، ولم يرد في شعره الذي بقي لنا ما يشير إلى شيء من هذه الصورة ، ومن أجل ذلك أرجح أنه كان إنساناً عادياً ، لا ترى العين فيه شذوذاً يستوقفها . أما صفاته النفسية فإننا نرى عند مؤرخيه إعجابهم به إعجاباً بلغ بياقوت أن يقول فيه : إنه أريب كامل^(١) .

وأول ما نلاحظه من صفاته : الذكاء . فقد رأيناه قبل أن يبلغ سن الرشد في نيسابور مع أخيه محمد يتردد على شيوخها ، ويأخذ العلم عن أعيان علمائها^(٢) . ورأينا أثر هذا الذكاء فيما اهتدى إليه القاضي الجرجاني من مبادئ في النقد كان لها أثرها الكبير في النهوض بالنقد وحسن توجيهه . وكان من تقدير القاضي للذكاء أن يجعله من أسس صفات الأديب^(٣) .

وثاني ما نلاحظ فيه : مقدرته على التحصيل . وهو بهذه الصفة وسابقتها يستطيع أن ينتفع بما يقرأ ، وأن يستنبط مما يعرفه قواعد يضيف بها جديداً إلى ثروة العلم ، وذخيرة الأدب ، وقد أشار مؤرخوه إلى هذه المقدرة . فذكر الثعالبي أنه اقتبس من أنواع العلوم والآداب ما صار به في العلماء علماً وفي الكمّال عالماً^(٤) ؛ وقال ابن خلكان في الحديث عن كتابه : الوساطة : إنه أبان فيه عن فضل غزير ، واطلاع كثير ، ومادة متوفرة^(٥) .

وثالث ما نلاحظه من صفاته : الصراحة في قول الحق ؛ وليس أدل على

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٥ .

(٣) الوساطة بين المنتبى وخصومه ص ١٤ .

(٤) يتيمة الدهر ٤ : ٣ .

(٥) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٥ .

هذه الصّفة من تأليفه كتاب الوساطة ؛ فنحن قد رأينا فيها مضمي الصلة الوثيقة التي ربطته بالصاحب بن عباد ، ورأينا حبّ الصاحب له حباً مبنياً على التقدير والإعجاب ، وسوف نرى قصائد المدح التي أنشأها القاضي في الصاحب شكراً له وتسجيلاً لفضله . ومع كلّ ذلك لم يتردّد القاضي الجرجاني عند ما ألقى الصاحب كتابه : الكشف عن مساوئ المتنبي - أن يعلن رأيه في الشاعر صريحاً وإن خالف رأى الصاحب .

وسواء أكان تأليف كتاب الوساطة قبل أن يتصل بالصاحب ، أو وهو متصل به ، أم بعد أن مات الوزير ، فليس ذلك بمنتقص من صراحة القاضي ، ولا بغاضٍ من شأنها :

فلو أنّه كتبه قبل أن يتصل بابن عباد فإنّ هذه الصراحة لم تدفعه إلى أن يجامل رجلاً مرموق المكانة ، رفيع المنزلة ، مأمول الجاه ، مرجوّ العون ؛ ولو أنّه كتبه بعد وفاته فهذه الصراحة أيضاً لم تدعه يجامل صديقاً لا يرى الحقّ إلى جانبه ؛ وأمر الصراحة في قول الحقّ واضح إذا كان القاضي قد أنشأ الكتاب في حياة الصاحب .

ورابع ما نذكره : حبه للصدق ؛ فلا يصدر حكماً مبنياً على هوى ؛ وكان ذلك هو الذي دفعه إلى تأليف كتاب الوساطة ، فقد رأى الكثير من أحكام الصاحب صادراً عن الغيظ الذي ملأ صدره على المتنبي .
وخامس صفاته : مياحه إلى العدالة ، ولذلك سجل له التاريخ أنه كان حسن السيرة في قضائه ، صدوقاً (١) .

وإن تلك الصّفات هي التي أهلتها لولاية القضاء ، وتأليف كتابه الخالد : الوساطة .

وسادس ما نستطيع أن نصفه به : الصبر ؛ فهو يصبر على الفقر ، ويمنع

(١) المرجع السابق نفسه .

نفسه من شهواتها إذا لم يجد ما ينفقه في زمن العسر ، مؤمناً بأنه إذا لم يجد المرء عند نفسه ذخيرة من الصبر يلجأ إليها في أيام الفاقة ، فإن للناس العذر إذا لم يقدموا إليه مالا ينفقه على رغائبه .

والصفة السابعة هي التي دفعته إلى الصبر وحملته عليه ، وهي عزة النفس والأنفة من إذلالها ، وهو لذلك لا يرى الخضوع لأرباب المال والسلطان وسيلة إلى الرزق الواسع والغنى العريض .

والصفة الثامنة تتصل اتصالاً وثيقاً بعزة النفس ، وتلك هي انقباضه عن الناس ، وإيثاره للعزلة عنهم ؛ لأنه يرى في القرب من أصحاب السلطان خضوعاً لا يرضاه ، كما ذكرنا ، ويرى في القرب من الناس ما يدفعهم إلى الاستهانة بأمره والغض من قيمته ، وله في ذلك قصيدة مشهورة يقول فيها :

يقولون لي : فيك انقباض ، وإنما
أرى الناس : من دانا هو هان عندهم
وما زلت منحاذاً بعرضي جانباً
إذا قيل : هذا مشرب ، قلت : قد أرى
ولم أقض حقّ العلم إن كان كلما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي
أشقى به غرساً ، وأجنيه ذلةً
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولكن أهانوه ، فهان ، ودنسوا
فهو يرى من حقّ العلم أن يكون صاحبه رئيساً مخدمواً ، لا خاضعاً
ذليلاً لمن بيدهم المال وإلجاء ؛ ويضحى بزينة الحياة الدنيا إذا صحبها الهوان
والدّل .

(١) يتيمة الدهر : ٤ ، ٢٢ ، ومعجم الأدباء : ١٤ ، ١٧ ، والنثر الفنى : ٢ ، ١١ . والحيا : الوجه . وتجهم : صار عابس الوجه . والذى في المعجم : (ولكن أذلوه جهاراً . . .) .

وصفه الانقباض عن الناس تحفظ له وقاره ، وهي كذلك بلا شك ترشحه لمنصب القضاء ، وتتفق مع هذا المنصب .

ولم يكن اتصاله بالصاحب بن عباد غاضباً من عزة نفسه ، أو نزولاً منه عن كرامته ، فقد رأينا فيما أسلفناه تبجيل الصاحب للقاضي تبجيلاً كان القاضي يستغنى الصاحب منه « لفرط تحفيته به ، وتواضعه له »^(١) .

ويظهر لي أن صفة الانقباض عن الناس ، وإيثار البعد عنهم كانت من أبرز سماته التي لحظها في نفسه ؛ فلم يكن انقباضه عن كبار الرجال فحسب . ولكن عن صحبه كذلك ، فقد كتب إلى أخوين له يعتذر من انقباضه عنهما ، وإغيابه زيارتهما :

أيا معهدّ الأحباب ، ذكرهم عهدى
 ودُمُّ لي ، وإن دام البعادُ ، على الودِّ
 ولي خلقت لا أستطيع فراقه
 يُفوتني حظي ، ويمعني رشدي
 نقور عن الإخوان من غير ريبة
 تعدّ جفاء ، والوفاء لهم وكدي^(٢)
 غديت به طفلاً ، فإن رمت هجره
 تآبى ، وأغرنتي به ألفة المهدي
 على أنني أقصى الحقوق بنيتي
 وأبلغ أقصى غاية القرب في بُعدى
 ويخدمهم قلبي ، وودّي ، ومنطقي
 وأبلغ في رعي الزمان لهم جهدي^(٣)

(١) معجم الأدباء ١٤ : ٢١ .

(٢) وكدي : قصدي .

(٣) جهدي : طاقتي .

فإن أنما لم تقبلا لى عنبرة
 وألزمتانى فيه أكثر من وُجدى
 فقولا لطبعى أن يزول ؛ لأننى
 أرى لكما حقّ الموالى^(١) على العبد^(٢)

والقطعة صريحة في وصف هذه الخصلة ، وأنها متأصلة فيه ومن طباعه
 التى لا يستطيع أن يفارقها . مع إيمانه بأنّ هذا الخلق يحول بينه وبين لذائد
 الحياة .

وصفة تاسعة نستطيع أن نصفه بها مطمئنين . تلك هى حبه للجمال ،
 فقد تغنى بمظاهر الحسن ، وهفا إلى الجمال فى شعره .
 وأغلب ظنى أنه كان يجد فى النبيذ متعة يسعد بها فى هذه الحياة ، وقد أباح
 بعض علماء الدين شرب النبيذ إذا لم يصل شربه إلى حدّ الإسكار .
 وغلبنى هذا الظنّ عند قراءة هذا الشعر للقاضى فقد أرسل إلى من كناه
 بأبى الحسن يقول له :

أبا حسن ، طال انتظار عصابة
 وقد فاتهم من قربك الأنس والمنى
 فإن كنت قد عوّضت عنهم بغيرهم
 فأنسُ الفتى فى الدهر خلّ مساعد
 فلما رسولٌ بالنبيذ مبادرٌ
 رجلك لما يُرجى له الماجدُ الحرّ
 وحاربهم فيك اختيارك والدهر
 فعوّضهمُ راحاً يزول بها الفكر
 وإن فاته الخلّ المساعد فالخمر
 وإلا فلا تغضب إذا غضب الشعر^(٣)

ونستطيع أن نختم حديثنا عن صفاته النفسية بصفة عاشرة . تلك هى أنه كان
 برغم انقباضه عن الناس طموحاً كبير الآمال ، نلمح ذلك فى قواه :
 ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتي
 لأخدم من لاقيت ، لكن لأخدما

(١) الموالى : السادة .

(٢) يتيمة الدهر ٤ : ٢٣ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٣ .

لا يرضى أن يعيش في بلد لا يعزّ فيه ، ولا يقيم حيث يبتذل ولا يدرك
مَنْ حوله مقداره :

وما أقيم بدار لا أعزّ بها ولا يقر قرارى حيث أبتذل (١)
وكان يدعو من لا يعزّ بداره إلى الرحيل عنها ، واختيار مقام جديد يحقق
فيه آماله ؛ وها هو ذا يرسل إلى شاعر بلغه عنه أبيات يشكو فيها أهل ناحيته ،
فكتب إليه :

إذا البلد المغمور ضاق برُحْبِهِ على ماجدٍ فليسكن البلد القفرا (٢)
وهو مؤمن بأنّ الصّبر هو الذي يحقّق الغايات ، ويحطّم الصّعاب والعقبات :
وما غلب الأيامَ مثلُ مجرّبٍ إذا غلبته غايةٌ غلب الصّبرا (٣)
ولسنا نشكّ في أنّ مدائح بعض أمراء عصره كان يريد بها أن يتخذها
وسيلة لتحقيق آماله ، ولا سيما أنه كان يجد نفسه أهلاً لأن يظفر من الآمال
بما يشاء ، على شريطة ألا يلجئه ذلك إلى ذل أو خضوع .

وكان القاضي الجرجاني يعترّ بشخصيته ، وظهر من آثار هذا الاعتزاز
أنه برغم صلته بالصاحب لم يتأثره في التزام السجع .
ومع هذا الاعتزاز يبدو فيه تواضع العلماء ، فتسمعه يقول لمن يناظره :
« فإن رأيتني جاوزت لك موضع حجة فردّني إليها ، ونبّهني عليها ؛ فما أبرئ
نفسى من الغفلة ، ولا أدعى السلامة من الخطأ » (٤) .

ومن صفاته عالماً وقاضياً تربيته في الحكم ، وحبّه للدقّة فيما يصدره من
الأحكام ؛ فإذا أصدر حكماً عاماً قرّر أنه أقدم عليه « انقياداً لظن ، واستئامة
إلى ما يغلب على النفس ؛ فأما اليقين الثقة ، والعلم والإحاطة فعاد الله أن
أدّعيه » (٥) .

(٢) يتيمة الدهر ٤ : ٢١ .

(٤) الواسطة ص ١٧٤ .

(١) المرجع السابق ص ١٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٢ .

(٥) الواسطة ص ١٥٧ .

ولنا أن نضيف إلى كل ما سبق أنه كان رجلاً يجب أن يتقن كل عمل يوكل إليه ، ويبدل فيه كل ما يملك من الجهود .

٣ - علاقته بعصره

لم يتصل القاضي الجرجاني بالسياسة في البلاد التي رحل إليها في العراق والشام ، على ما أرجح ؛ لأنّ همته كان منصرفاً إلى الدرس والتحصيل ، ووجد في العلم ميداناً يستغرق نشاطه كله ، وربما رأى في السياسة المضطربة التي سادت العصر الذي عاش فيه صارفاً يحول بينه وبين الانغماس فيها ؛ فإنه كان يرى عزيز اليوم ذليل الغد ، فما له يسير في طريق لا يأمن مغبته .

وعندما اتصل بالصاحب بن عباد وبعض أمراء عصره ، لم يمدحهم بشيء يتصل بالسياسة فيما بقي لنا من شعره .

كما أن منصب القضاء الذي تولاه بعيد كل البعد عن السياسة في يد رجل نزيه يعتز بنفسه كالقاضي الجرجاني .

ولكنه اتصل اتصالاً وثيقاً بالحياة العلمية في عصره ، ففضى بحب البلاد باحثاً عن أعلام العلماء ، يأخذ عنهم ، ويجلس بين يديهم طالباً مجدداً . حتى إذا حصل من الثقافة ما استطاع أن يحصل ، عاد بدوره ينشر العلم بين طلابه ، وفيما يضعه من الكتب ، حتى ذكر اسمه في الدنيا ، كما قال ياقوت (١) .

ويدلنا على ما وصل إليه في عصره من المكانة العلمية أنه بعد أن ألف كتاب « الوساطة بين المتنبئ وخصومه » أرسل إليه بعض أهل نيسابور مدحاً يقول فيه :

(١) معجم الأدباء ١٤ : ١٥ .

أيا قاضياً ، قد دنت كتبه وإن أصبحت داره شاحطه (١)
 كتابُ «الوساطة» في حسنه لعقد معاليك كالواسطه (٢)
 وما هو ذا يرسل إليه بعض أهل رامهرمز أبياتاً يمتدحه فيها ، فيجيبه
 القاضي الجرجاني بقصيدة طويلة يقول فيها :

بدأت ، فأسلفتَ التفضّل والبرّاً وأوليت إنعاماً ملكت به الشكراً
 أتتنا عذاراك اللواتي بعثتها لترسعنا علماً ، وتلبسنا فخراً
 فأوليتها حسن القبول معظماً لحقّ في أهدى بين لنا ذكراً
 تناهى النهى فيها ، وأبدع نظمها خواطر ينقاد البديع لها قسراً
 مدحت ، فعددت الذي فيك من علا وألبستني أوصافك الزهر الغراً (٣)

وكنا نتمنى أن لو كانت الأبيات التي أرسلت إليه من رامهرمز قد وصات
 إلينا لتبين ما كان الناس يحملونه للقاضي من التقدير ، وأسباب إكبارهم له ؛
 لأن البيتين اللذين قيلاً في الوساطة يدلان على مقدار ذبوع هذا الكتاب ، ووصوله
 إلى الأقصى ، وما قوبل به عندما ألّف ، وفي التعبير بعقد المعالي ما يشير إلى
 ما كان يحمله الناس للقاضي من الإكبار والإعجاب .

كانت الصلة العلمية التي تربط القاضي بعصره قوية وثيقة ، وإذا كان
 القاضي ممن يؤثرون الانقباض عن الناس واعتزالهم ، كما ذكرنا ، فلم يكن ذلك
 الانقباض عن تلاميذه ، لأنهم هم الذين أذاعوا اسمه في أرجاء الدنيا .
 أما الصلة الوثيقة التي ربطت القاضي الجرجاني بعصره تمام الارتباط فهي
 أخذه بنصيب من تلك الحصرمة التي شبت في عصره حول المتنبّي (٣٠٣ -
 ٣٥٤ هـ) ؛ فنذ حياة الشاعر تكوّنت أوساط معجبة به في حلب ، والفسطاط ،
 وبغداد ، وشيراز ، حيث كان ديوان الشاعر يشرح .

(١) شاحطة : بعيدة .

(٢) معجم الأديباء ١٤ : ١٩ .

(٣) يتيمة الدهر ٤ : ٢١ .

أما دائرة حلب ، فقد تفرقت بموت سيف الدولة ؛ لأنها كانت في جوار معاد للشاعر ؛ وكذلك كان مصير دائرة شيراز ؛ فنذ أقام عضد الدولة في بغداد ، ذابت في دائرة عاصمة الخلافة .

ولم يضع موت المتنبي حداً للعداوة التي يحملها كثير من الكتاب والشعراء والعلماء للشاعر وديوانه :

فأحياناً تبدو هذه العداوة بالصمت ، ويظهر أن ذلك كان حال أبي الفرج الأصفهاني الذي لم يذكر مرة واحدة شاعر سيف الدولة في كتابه العظيم : « الأغاني » ، وحال المرزبانى أيضاً (المتوفى سنة ٣٨٣ هـ) ؛ إذ لم يُشر إلى المتنبي أية إشارة بخير أو بشر في كتابه : « المرشح » في أخطاء شعراء العرب . ومع ذلك لم يستمر النقد ملتزماً هذا الصمت المعاتب ، بل انتقل إلى دور الهجوم بعنف من لم يعد يخشى ردّ الشاعر الذي مات .

وقد بدأ ذلك الصاحب بن عباد ؛ فقد صنّف مؤلفاً صغيراً سماه : « الكشف عن مساوئ شعر المتنبي » ، كما عني الحاتمي الذي كان قد حدث المتنبي - بنقد ديوان أبي الطيب ، في رسالتين ، عمران إحداهما : « المرضحة في ذكر سرقات المتنبي والساقط من شعره » ، وتعرف هذه الرسالة أيضاً بالرسالة الحاتمية ، كما تعرف الثانية « بالرسالة الحاتمية » كذلك ، وفي مقدمتها يذكر أن بعض شعر المتنبي يذكر بأفكار أرسطو ، ثم أورد مائة حكمة من حكم أرسطو ، وأتبع كل حكمة ببيت من شعر المتنبي ، يشتمل على فكرة مشابهة .

أما العسكري الناقد البغدادي المؤلف لكتاب الصناعتين ، والمتوفى بعد سنة ٣٩٥ هـ ، فيظهر أنه لم يقابل المتنبي ، وأن عداوته ناشئة من آراء شخصية لأبي هلال ، لا يرى شعر المتنبي يتفق معها ، وقد قال أبو هلال عنه : « لا أعرف أحداً كان يتبع العيوب ، فيأتيها غير مكترث إلا المتنبي ؛ فإنه

ضمّن شعره جميع عيوب الكلام ما أعدمه شيئاً منها» (١) .
 أمام هذا الاتجاه المعادى للمتنبي ، نهض حبّ المعجبين بالشاعر ،
 وأخذ عددهم يزداد في كل يوم .

فالصّابي ، رئيس ديوان الإنشاء في بغداد ، والذي كان يفكر في أن
 يمدحه الشاعر ، لم يخطئ عندما كان يقتبس من شاعر الكوفة .
 وفي بلاط البويهيين بالرّبيّ ، لا ندهش عندما نرى الصّبيّ ، أحد كتّاب
 الإنشاء ، والذي كان من المخلصين في خدمة ابن عباد ، يستعير بعض أخيطة
 المتنبي .

ومما هو جدير بالنظر أنّ الوزير ابن عباد وجد نفسه مقوداً بغير إرادته إلى
 أن يعترف بمواهب الشاعر الذي يهاجمه ، بأن نثر أو تمثل علانية ببعض شعره
 الجيد .

كما نجد أبا بكر الخوارزمي الكاتب والشاعر ، معجباً بالمتنبي ، يقلّد
 ديوانه ، وينشره منذ عودته إلى خراسان .

ولن ندهش عندما نرى واحداً من أكثر تلاميذ المتنبي تحمساً له ، وكان
 الشاعر يعدّه أميناً على آرائه ، وهو ابن جنيّ — يدافع عن أستاذه في شرح ،
 وفي مصنّفين صغيرين : أحدهما يدرس ما تناوله الدّيان من القرن الشعريّة ،
 والثاني يفنّد الهجمات التي وجهها ابن وكيع المصري إلى الشاعر .

ولم يكن اتجاه الإعجاب بالشاعر خاصاً بابن جني ولا بوسطه ؛ لأننا
 نجده في بخارى عاصمة السامانيين ؛ ففي حكم نوح بن منصور (٣٦٥ —
 ٣٨٧ هـ) ، نجد أبا الحسن محمد بن أحمد المشهور بالمتيّم يؤلف كتاباً
 عنوانه : « الانتصار المنبي عن فضل المتنبي » .

وفي هذا التاريخ تقريباً وضع أبو الحسين حمزة بن محمود الأصفهاني ، أحد

(١) ديوان المتنبي في العالم العربي وعند المستشرقين ص ٥ - ٩ ، وراجع الصناعتين ص ١٣٠ ،

كتاب البويهيين - « رسالة في كشف عيون المتنبي » وفيها يرينا بالشواهد التفوق الأدبي للمتنبي .

وكان هذا الحزب هو الحزب المعارض للنقد الذي وجهه الصاحب بن عباد. خصومة بعض الناس للمتنبي ، وغرام البعض الآخر به ، ترك المكان لموقف ثالث ، هو النقد الذي لا ينكر قدر المتنبي ، ويأبى أن يغمض العين أيضاً عن هفوات ديوانه .

وكان القاضي الجرجاني الحائز لفضيلة السبق ؛ فلكى يردّ على ابن عباد ألف كتابه : « الوساطة بين المتنبي وخصومه » ، حيث أراد أن يؤيد ما هو صحيح من الهجمات التي وُجّهت إلى الشاعر ، ويبين أيضاً ما يستحقه بمقدارة من مدح المعجبين به ^(١).

وهكذا كان اتصال القاضي الجرجاني بعصره اتصالاً قوياً عندما أدلى بدلوه في خصومة طال النزاع فيها في العصر الذي عاش فيه .

(١) المرجع السابق : ديوان المتنبي . . . ص ٩ - ١٢ .